اللّسان العربي وسوسيولوجيا تطوّره [1]

لقد تعدّدت وتضاعفت الشّروح والتّفسيرات للسان منذ ظهور أفكار "سوسير"، وعلى الرّغم من تنوّع الافتراضات حول قضاياه، فإنّ الجمّ الغفير من اللّسانيين يعترفون بكل ثقة أن اللّسان يخضع من النّاحية الاجتماعية للتطوّر، وأنّ دراسته لا يمكن أن تتمّ خارج الإطار الاجتماعي.

ولكن تطوّرا كهذا لا يمكن أن يقيمه عامل واحد، إذ تتعدّد أسبابه وتتنوّع حسب المذهب اللّساني الّذي يدرس اللّسان في إطاره. ويسعى اللّسانيون إلى تعريف هذا التّطوّر بكل ما من شأنه أن يسمح للّسان بالنموّ داخليا ويستجيب في الآن ذاته لرغبات مستعمليه في جميع الميادين، ومن هنا كان لابد من أن يخضع هذا التّطوّر للمعايير التّالية:

1- المعيار الاجتماعي
2- المعيار الثّقافي.
3- المعيار الإيديولوجي.
4- المعيار السّياسي.
5- المعيار الاقتصادي.

ويجدر أن يضاف إلى هذه المعايير تطوّر اللسان في ذاته، وهو التطوّر الّذي يصيب الجوانب الفونولوجية والدّلالية والبنوية، وهو في حقيقته نتاج المعايير السّابقة، فهي تؤدّي فيه دورا مصيريا، وذلك ما نراه في قاموس

---

1 - د/ طاهر جيلالي؛ قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة د.الطاهر مولاي، سعيدة، الجزائر.

اللّسانيات وعلوم اللّغة:" يتغيّر كل لسان بشكل مستمر، ولكل لسان تاريخ، فيدرس التّاريخ الدّاخلي التّغيّرات الّتي خضع لها اللّسان أثناء مساره، ويدرس التّاريخ الخارجي له التّغيّرات الّتي أنتجتها الجماعة اللّسانية بفعل الحاجة نحو تغيّر المكان وزيادة مجالات نمو لهجة ما، إن التّاريخ الخارجي يحدّد شروط التّطوّر اللّساني بالفعل." [1]إنّ ظاهرة التّطوّر تفرض نفسها على كل واقع لساني بشكل لا يمكن إنكاره بدون أن يولّد ذلك أي أثر متجانس ومنظّم. فيستمر في تنوّعه وليونته بما يتواءم مع ما يفرضه واقع لساني معيّن.

تخضع الجزيرة العربية بشكل ملفت للنظر إلى أحادية لغوية تامة وغير قابلة لأن تتأثر بتأثيرات أجنبية يجعل منها حقلا حاملا لمجموعة من الحقائق اللسانية ذات مغزى بشكل خاص. وهي حقائق تاريخية بدون شك تدعم وتكفل هذه الخصوصية إضافة إلى قناعات دينية واجتماعية 'و مهما يكن' فإن الحقيقة اللسانية للجزيرة المدنية لغناها وبالتالي إلى العديدمن المعايير لحالة التطور التي تتميز بها في المرحلة الراهنة تعطي للباحثين في المجال اللساني إمكانات متعددة وتسمح لهم بإدراك مدى التطور الذي تعيشه وخصائصه المستمرة ونقطة الارتكاز التي تسمح بإقامة تصور حول الميكانيزمات التي تدخل في إنشاء حقيقة لغوية على هذه الشاكلة .

1- وضعية اللسان العربي:

إن اللسان المسمى باللسان العربي هو اللسان الوحيد المستخدم منذ قرون من قبل العرب الأقحاح من أجل الاستجابة إلى حاجة التواصل والذي لا يزال إلى حد الساعة يستأثر بالتبادل التواصلي قد عرف مسارا تطوريا

[1]- jean Dubois, Dictionnaire de linguistique et sciences du langage, p.189

معقدا تعقيدا يندر أن نجد له نظير لأنه أضحى مقدسا منذ مجيء الإسلام فهو لسان القرآن الذي يؤدي منذ ذلك الحين دورا جوهريا في المنطقة مما يمارس تأثيرا لا يقاوم على أنفس المسلمين .

وبفضل الإرث اللغوي والثقافي، أصبحت الأمة العربية أمة ثقافية اليوم ومع خلق رؤية ذات طابع وطني تحولت اللّسان إلى محفز قوي للتطلعات الثقافية الآن، لأن مستقبل اللّسان يرتبط ارتباطا وثيقا بمستقبل العرب أنفسهم. فقد كتبت صحيفة "تشرين" السورية على سبيل المثال:

"الحقيقة هي أن ندافع عن اللسان العربي لأنّنا على يقين أن وجودنا الوطني مرتبط بالحفاظ على هذا اللّسان". ولنشير إلى جانب آخر لهذه القضية، فقد أشار "ت.أ. لورنس": "أن العرب قد أضاعوا إحساسهم بالمعنى الجغرافي، وذاكرتهم الرّاديكالية والسياسية والتاريخية، بعد الغزو التركي. ولكنهم تمسكوا بلسانهم، وأقاموا نوعا من الوطنية" [1].

هذه الميزات الملفتة للنّظر توفر المعلومات قبل توفير الفائدة التي قد تشتمل عليها دراسة منطقة لسان ما. وعلاوة على ذلك، فإنّها تسمح بتسليط الضّوء على تنوّعات لسانية أخرى كانت قد تعرّضت إليها دراسات غير هذه الّتي بين أيدينا، إذا ما أخذنا هذا الاتّجاه بعين الاعتبار. فهل من الممكن - في حالة أخذ اللّسان العربي بشكل حصري كموضوع للدراسة مع التّركيز على المراحل المختلفة لتطوّره في صلب هذه المنطقة من العالم - أن نعتبره أنموذجا لتحليل الوضعية السّوسيولسانية بالنسبة لبقية الألسنة الأجنبية الأخرى؟ أم بالعكس، أليس من الأكثر عقلانية وموضوعية - حين تحديد خصائص تطوّره-

1 -Anghelescu, N. Langage et culture dans la civilisation arabe, 138 Synergies Monde arabe n° 4 - 2007 pp. 123-139

معرفة الكيفية التي يتعامل بها اللسان العربي مع بقية الألسنة الأجنبية مع حفاظه في الوقت نفسه على احتكار السّاحة اللّسانية؟ مع معرفة المكانة التي يصرفها لتلك الألسنة، خصوصا وأنّ وجودها لا يزيده إلاّ غنى اعتبارا موضوعيا؟

2- الواقع اللّساني في الجزيرة العربية:

إنّ النّظر في دراسة الواقع اللّساني في شبه الجزيرة العربية يفترض إذن مقاربة من نوع "ثنائي". في الواقع، يجب وصف اللّسان العربي في كل بلد، وبهذا المعني علينا أخذه من الوجهة الدياكرونية المتشعّبة. فهناك فوارق في تطوّره بين البلدان المختلفة، كما توجد فوارق بين مناطق البلد الواحد. ولا تتعلّق هذه الفوارق بالبنية التركيبية فقط بل تتعدّاه إلى فوارق معجمية وصوتية وصرفية. وفي هذا المستوى بالذّات، علينا أن نتذكّر أنّ هناك عوامل أخرى مثل الموضة والاحتكاك بالأجانب من شأنها أن تجعل من هذا التّطوّر تطوّرا غالبا ما يكون مدهشا وغير متوقّع.

إنّ هذه النّظرة على الوضعية اللّسانية الأصلية، وعلى وضعية مستعمليها في هذه المنطقة يسمح لنا بتقديم فكرة على النّظام اللساني في مجمله وعلى مختلف العلاقات التي يصنعها من ناحيتي النسج والصيانة ذلك النّسج.

إنّه لموضوع شائك وخطير، لذلك نسعى فيه إلى بعض الموضوعية، لأن الطّريق الّذي نسلكه فيه يعد رهانا، ولكن أهميته القصوى تستحق ذلك الرّهان. [1]

1 -Ibrahim Albalawi, évolution de la langue arabe: étude sociolinguistique; Synergie Monde arabe, N°4 - 2007, pp.123-139

لقد أثبتت النّظريات السوسيولسانية في مناسبات كثيرة أن حركة الألسنة تتّبع مسارا منتظما وعاديا وتقوم على مناهضة كل تحوّل راديكالي أو تشويه كامل، وهي بذلك ليست أنتاجا لمجرّد هالة أو "ثورة غضب". إنّ القواعد التي تعمل وفقها تلك الألسنة خاضعة إلى معايير محدّدة بدقّة يمكن لفرط دقّتها أن تقارن بـ:"القوانين الطّبيعية".

تتمتّع الظّاهرة اللّسانية بـ:"حركة حرّة" تمكّن من التّأثير في التّطوّر على مختلف الأصعدة. بيد أنّ ذلك لا يبدو قابلا للتحقيق إلاّ في حالة خضوع الظّاهرة اللّسانية إلى قواعد محدّدة بشكل دقيق وواضح. وما دام اللّسان ظاهرة اجتماعية فهو موضوع للتطوّر الّذي يلامس المستوى الصّوتي والمستوى الصّرفي- التّركيبي والمستوى الدّلالي. فلا يمكن إذن لهذا التحوّل أن يكون وليد انطباع ما أو من قبيل المصادفة، وليس نتيجة للإرادة البشرية، ولكنّه منقاد إلى "قوانين قسرية". ولا تعوزنا الأمثلة لكي نوضّح هذا، ونفضل في هذا الجانب أن نحدّ من أمر استحضار أو تذكّر تطوّرات للّسان العربي بشكل سريع ومقتضب، فقد تمّت تلك التّطوّرات تبعا لمسار خاص به طبعا- ، تماشيا مع تطوّر الحضارة العربية الإسلامية، أثناء احتكاكه بالألسن الأخرى. وحينها أثرت تلك الألسن في اللّسان العربي كثيرا عن طريق الاقتراض وعمل هو أيضا على إغنائها. فإذا كنّا لا نصادف في الغالب الأعم سببا مباشرا أو ندرك بشكل تام الظّروف الّتي أحدثت تطوّرا ما في كلمة أو في حرف، ونجهل عموما الطّريقة الّتي غيّرت من تلك الكلمة أو ذلك الحرف، فإنّ أمر الكشف عن ذلك يمكن بلوغه عن طريق الاستنتاج والتّحرّي بسهولة ويسر.[1] ما فتئ اللّسان العربي يتطوّر على امتداد فترة

1-Ibrahim Albalawi, op.cité, pp.123-139

من الزّمن غير يسيرة بشكل عميق يصل في بعض الأحيان إلى درجة الرّاديكالية، ولكن التّطوّر ذاك كان أحيانا أخرى سطحيا لا تلمس فيه آثار التطوّر، خاصّة إذا غاب التّطوّر في غياهيب النّسيان وعدم الاكتراث. ومن السّهل جدّا أن يثبت علماء الأصوات ظاهرة كتلك ويكشفون عنها دون أدنى لبس، وهو الأمر نفسه بالنّسبة لبقية الاختصاصات، مثل حرف "الجيم" الذّي عرف مسارا متفرّدا في تحوّلاته الكثيرة بحكم المكان وبفعل عوامل أخرى، فهو في الكويت وحضرموت وشّرق المملكة العربية السّعودية ينطق بشكل معروف يمكن أن نكتبه كتابة صوتية على شكل [y]، وسرعان ما يترك هذا الصّوت هذا الشّكل لينتقل إلى شكل آخر خاصّة في مصر حيث ينطق على شكل [g]،

ولنتبيّن ذلك في الجدول التّالي:

الكلمات التي تضم فونيم /ج/	نطقها في الكويت وشرق السّعودية	نطقها في مصر
رجل	ريال	رجل
جمل	يمل	جمل
جامعة	يمعة	جمعة
جابر	يابر	جابر

ويمكن ملاحظة الأمر نفسه في فونيم/قاف/ الّذي تعرض لتغيرات متنوّعة حسب المناطق الّتي لا تمارس فيها الفصحى إلاّ نادرا. يأخذ هذا الفونيم أشكالا نطقية مختلفة في القسم الأكبر من شبه جزيرة العرب كما في بعض مناطق المغرب العربي، ومصر وسوريا ولبنان والسّودان وشمال الأردن. والجدول التّالي يبيّن لنا التّطوّر الفونولوجي والصّوتي لهذا الفونيم في اللّهجات العربية:

الكلمة الّتي تضم فونيم /ق/	مصر- سوريا لبنان- ش.الأردن	ش. الجزيرة ودول أخرى	فلسطين
قلب	ألب	قلب	كلب
قارورة	أرورة	قارورة	كارورة
قلم	ألم	قلم	كلم
قام	آم	قام	كام
قدر	أدر	قدر	كدر
قلق	ألأ	قلق	كلك
قمر	أمر	قمر	كمر

يلاحظ بوضوح أنّ التّغيّرات التي خضع لها هذا الفونيم كثيرة ومتنوّعة.حقيقة أن هذه التّغيّرات التي شهدها عائدة في العادة إلى العامل الجغرافي، أمّا العوامل الدّاخلية منها والخارجية التي قد تكون عاملة في هذا التغيّر فلم يشر إليها الباحثون في هذا المجال من أبناء تلك المناطق حسب علمنا إلاّ قليلا. فهؤلاء لم يتجاوزوا الوصف إلى التّحليل، فأغلب الأعمال التي قدّمت إلى حدّ السّاعة لا تسعى إلاّ لإثبات الخاصيّة العفوية لتطوّر اللّسان العربي على الرغم من وجود بعض الالتفات الغث إلى القوانين الطّبيعية والظّواهر الاجتماعية. فإذا كانت الوضعية الجغرافية أو الجوار بشكل أدق أكثر عملية في حالة كهذه، خاصّة إذا كانت هناك جماعتان لسانيتان متجاورتان وتتكلّمان لسانين مختلفين، فاللّسان عامّة يبقى مظهرا اجتماعيا في نظر الإنسان، يحي بواسطة حركات تخترق المجتمع، ويتطوّر عندما يزدهر ذلك المجتمع ويهوي ويندثر ويباد عندما يسقط هذا الأخير [1]. فلا أحد إذن يدّعي أن العامل الجغرافي هو الّذي يسرّع عملية تّطوّر اللّسان عن طريق التّبادل الثّقافي

[1]- ينظر رمضان عبد التوّاب: التّطوّر اللّغوي، مكتبة الخانجي- القاهرة، الطبعة 2، 1990.

بين المجتمعات وتنشيط تواصلهم الاجتماعي، إن هذا النّوع من التّصوّر هو تبنّاه "مارتنيه" (Martinet) فيما يبدو عندما يعلن: "إن تطوّر لسان ما هو تطوّر الحاجات التّواصلية للجماعة التي تستعمله وتطور هذه الحاجات طبعا في ارتباط مباشر مع التطوّر الثّقافي والاجتماعي والاقتصادي لتلك الجماعة". [1]

اللّسان مرن بشكل كبير، وهو لذلك في علاقة فورية مع كل الظّواهر المرتبطة عموما بالمجتمع أين تتم ممارسته. وما فتئ علماء الاجتماع والنّفس يشيرون إلى ذلك، فتطوّر اللّسان في نظرهم - إضافة إلى وجود المجتمع دائما وإيّاه- لا يستطيع أن يضمن شكلا من أشكال التطوّر بالفعل إلاّ إذا تم ذلك على مستويين:

أ- انطلاقا من تطوّر داخلي: وهو التّطوّر الذّي يلحق الجوانب الصّوتية والصّرفية والدّلالية.

ب- انطلاقا من تطوّر خارجي: ويؤدّي العامل الجغرافي فيه دورا حاسما، في إطار الجماعة اللّسانية الواحدة أو بين جماعتين لسانيتين متجاورتين، وذلك بفضل التّبادل التّواصلي بين جماعتين ذواتي لسانين مختلفين حيث تتم ظاهرة التّطوّر بشكل أكثر سرعة.

3- الاقتـراض: يضحى الاقتراض المتبادل أمرا لا يمكن تجنّبه، مثل ما هو جار بين اللسانين العربي والفرنسي نظرا لعلاقتهما الطّويلة والمثمرة إذ أدّى ذلك إلى تبادل ثقافي معتبر. وقد اتّصف هذا التّبادل باقتراض لوحدات معجمية كثيرة، وستعطينا الجداول التّالية نظرة على ذلك، وحري بالذّكر أن اللسان الفرنسي قد اقترض من اللّسان العربي

1-Martinet, A.1991. Eléments des linguistique générale, A. Colin, Paris, 221p.

ما يربو عن المائة كلمة في حقول شتّى، وهاهي ذي بعض الأمثلة المأخوذة من القاموس الإيتيمولوجي مرتّبة حسب الحقبة التّاريخية التّي تمّت فيها:

الشّكل:01

في الحقل علمي	الحقبة الزّمنية	الكلمة بالفرنسية	أصل المصطلح المقترض
صفر	**1220م**	**chiffre**	**عربي**
صفر	**نهاية القرن XV**	**Zéro**	**عربي**
مومياء	**XIII في القرن**	**Momie**	**عربي**
شراب	**نهاية القرن XII**	**Sirop**	**عربي**

الشّكل:02

فيحقل العطور	الحقبة الزّمنية	الكلمة بالفرنسية	أصل المصطلح المقترض
ياسمين	نهاية القرن XV	Jasmin	فارسي
زعفران	في القرنXII	Safran	فارسي
عنبر	في 1258م	Ambre	فارسي

الشّكل:03

فيحقل الغذاء	الحقبة الزّمنية	الكلمة بالفرنسية	أصل المصطلح المقترض
قهوة	في 1654م	Café	عربي
سمسم	1298م	Sésame	عربي
سكّر	1175م	Sucre	هندي

الشّكل: 04

في حقول مختلفة	الحقبة الزّمنية	الكلمة بالفرنسية	أصل المصطلح المقترض
قيثارة	في القرن XIV	Guitare	عربي
متموّج	في القرن1650م	Moiré	عربي
مخزن	في القرنXIV	Magasin	
قطن	نهاية القرن XII	Coton	
مطرقة	في 1863م	Matraque	عربي

والأمر نفسه ينطبق على اللسان العربي إذ اقترض من اللّسان الفرنسي مئات الكلمات في مختلف الحقول والاختصاصات، مثلما يظهر في الجداول التّالية:

شكل: 05

في المجال السياسي	الكلمة بالعربية	أصل الكلمات المقترضة
Diplomatie	دبلوماسية	إغريقي
Bureaucratie	بيروقراطية	إغريقي
Démocratie	ديمقراطية	لاتيني
Parlement	برلمان	فرنسي

الشّكل:06

في المجال الإداري	الكلمة بالعربية	أصل الكلمات المقترضة
Cadre	كادر- إطار	إيطالي
Archive	أرشيف	فرنسي
Facture	فاتورة	لاتيني

الشّكل: 07

مجال العلوم والتكنولوجيا	الكلمة بالعربية	أصل الكلمة المقترضة
Docteur	دكتور	لاتيني
Radio	راديو	لاتيني
Téléphone	تلفون	إغريقي
Télévision	تلفزيون	إغريقي
Moteur	موتور- محرّك	لاتيني
Mécanique	ميكانيكا	إغريقي

الشّكل: 08

مجالات مختلفة	الكلمة بالعربية	أصل الكلمة المقترضة
Comédie	كوميديا	لاتيني
Cinéma	سينما	إغريقي
Canapé	كنبه	لاتيني

بيد أنّ احتكاك اللّسان العربي سانكرونيا بكثير من الألسنة يجعل الوضعية أكثر تعقيدا، لأنّه تأثير أحد الألسنة في غيره يكون غير مباشر. يؤكّد توفيق شاهين في كتابه علم اللّغة العام أثر هذه الظّاهرة على اللّسان العربي الّذي أثّر على الإسباني وهو بدوره مدين للّسان الفارسي، فكان التّأثير الفارسي في الإسباني باديا. والأمثلة ليست نادرة في هذا الباب. وانطلاقا من هذه الوجهة، فإنّه يبدو لنا أنّ الاحتكاك بين الألسنة من شأنه أن يثير حركة تطوّريّة من منظور ثقافي ولساني يساهم في ترقية التعليم وتعليمية الألسنة.

إذا عدنا إلى الأمثلة الّتي سيقت في الجداول السّابقة، نلحظ أنّ اللسان العربي قد اقترض المصطلحات التّالية: (عنبر)، (مسك)، (ياسمين) من اللّسان الفارسي، وأمدّ ألسنة أخرى بمصطلحات كالفرنسية وبقية

الألسنة الّتي كانت بينه وبينها احتكاك كاللّسان الإسباني، كما نلاحظ أن مصطلحات من قبيل (الدبلوماسية) ذات الأصل اللاّتيني و(الديمقراطية) ذات الأصل الإغريقي وغير ذلك قد اقترضها اللّسان العربي مباشرة عن طريق الاتصال والتدخّل الأدبي والثّقافي الفرنسي في الأدب والثّقافة العربية في نهاية القرن XIX، وقد حدث تأثير غير مباشر للّسان الفرنسي في اللّسان العربي عن طريق من تشبّع بالأدب والثّقافة الفرنسية من العرب. [1]

وكما نرى، فإنّ الاحتكاك بين الألسنة يدرج بطريقة أو بأخرى نوعا من التّبادل الثّقافي، ونعتقد لذلك أنّ التّقارب بين الألسنة في أيّ مجال من المجالات يستطيع أن يساهم عن طريق الاقتراض في دفع الأفراد إلى اكتشاف لسان أجنبي .

وفي هذا الإطار يمكن للاقتراض أن يشكّل قاعدة نستطيع الانطلاق منها نحو تعليم متعدّد الألسنة ومتعدّد الثّقافات عوض البقاء في جو الأحادية اللّسانية.

وفضلا على ذلك، فإنّ بعض الإحصائيات المفرداتية تشير إلى أنّ اللّسان الإسباني قد اقترض حوالي 400 مفردة من اللّسان العربي، وذلك عائد طبعا إلى التّبادل الحاصل بين اللّسانين، خاصّة أثناء وجود الحضارة العربية الإسلامية في إسبانيا، وحصول تقارب أكثر تطوّرا وأكثر خصبا وأهمية أمر عادي في ظروف كتلك. ولعل الأمر نفسه قد تكرّر مع اللّسان الفرنسي في الفترة الاستعمارية حين تداخلت الثّقافتان في

[1]* voir Henri mitterand et Autres, le dictionnaire étymologique et historique du français, Larousse, 2011.

مناطق شتّى، فاستجاب بعض العرب إلى الحركات الأدبية والثقافية في فرنسا وشكّل ذلك انطلاقة لتعلّم ألسنة أجنبية.

من هذه التّطوّرات المتنوّعة الّتي أدّت دروا حاسما في التّقارب بين الثّقافات، والّتي أسهب في الحديث عنها طويلا لسانيونكثيرون، فإن حدث أن انتبه هؤلاء إلى التطوّر المتواصل في المجتمعات فإنّ جهودهم تلك لم تتجاوز التطوّر الصّوتي بشكل عام إلى الظّاهرة السّوسيولسانية المتعلّقة بالاقتراض الّذي يتميّز بإدراج وحدة لسانية أجنبية بسيطة [1].

ولذلك يمكن لهذا اللّسان أن يتلقّى تغييرا كاملا أو جزئيّا بشكلفوري أو حسب معايير جغرافية أو وراثية أو تقنية أو سوسيوإديولوجية ملازمة أو غريبة عن أولئك الّذين يتكلّمونه. وخلاصة القول أنّ الّذين خاضوا في الحديث عن التّطوّر اللّساني لم يتوقّفوا عند معاينات غير مؤسّسة، ولكنّهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك عندما أرادوا تحليل

الخصائص الأساسية المتعلّقة بالتطوّر الصّوتي كلّه.

ونحن نشكّل هذه المقترحات، انبثقت الأسباب الأولى كنتيجة طبيعية لظّاهرة التّطوّر الصّوتي، وعلى العكس من التّطوّر النّاتج عن الاقتراض، فإنّ الاقتراض نفسه يصعب الإمساك به، لعدم انتظامه، فهو يستقلّ أحيانا عن أصوله،فهو يفرض نفسه، ولذلك تبدو خطورته.

4- المظهر اللّغوي للّسان العربي: على الألسنة أن تعاني من التّطوّر، لأنّ التطوّر قضيّة طبيعية عير قابلة للمعالجة. فلا الأجيال ولا السّلوكات ولا حتى الميول أو المناسبات يمكن أن تكون ذات قابلية للتحكّم فيها.وفي ذلك يقول جاك كورتس: " إنّ اللّسان لا يطلب منّا أبدا رأيا لكي يتطور

[1]- Ibrahim Albalawi, évolution de la langue arabe: étude sociolinguistique; Synergie Monde arabe, N°4 - 2007, pp.123-139.

على كل حال، فإذا كان تلك رغبته، فإنّ أيّة عقوبة، وكل بوليس العالم لا يمنعه من الاقتراض والسّرقة والتّقليد والاختراع والتّزيين والتّشويه والتّزييف والخلط والدّوبان... وباختصار بأن يخص نفسه بكل ما يقع بين مخالبه ورغباته باللّعب على الشّكل والجرس وعلى الصّور الخاطئة والدّقيقة الّتي يلحظها في رحلته البعيدة" [1].

ومع ذلك يضحى الأمر أكثر تعقيدا، ومحل تعارض على الدّوام لأننا نجد أنفسنا أمام اتجاهين متناقضين بشكل كامل. الاتّجاه الأول يعتبر اللّسان من قبيل التّراث الموحّد للأمّة ورمزها الّذي لا يضاهى بل لحضارتها كلّها، وهو رمز إذا تمّ اكتسابه فلا بد من المحافظة عليه والدّفاع عنه ضد أدنى تغيّر يمكن أن يطال خصائصه الأصلية.

ويعتقد الاتّجاه الثّاني أنه من المستحيل للسان أن ينغلق على نفسه، وإذا ما حدث ذلك فقد قضى على نفسه آليا. إن ميكانيزمات التغيّر موجودة لتجعله في حالة تسمح له بالتكيّف سانكرونيا، والنّجاة من قبضة الحقب والمجتمعات الغابرة، في حالة ازدهار دائم وتفتّح على الجديد من الاحتمالات والرؤى، "فكل لسان في تطوّر دائم في أيّ لحظة من لحظات وجوده، فهو في حالة توازن دائمة تقريبا بين قوتين متعاكستين تحاول القوّة المحافظة أن تشدّه إلى حالته الرّاهنة، وتسعى الأخرى وهي القوّة الثّورية أن تدفع به إلى اتجاهات جديدة" [2]

يمكننا أن نستنتج أن التطوّر في الوضع الأوّل أين تسود القوّة المحافظة يعتبر أمرا مضرّا، يثير التّشويش وعدم الاستقرار، إضافة إلى أنّ هذا

---

[1] -Jacques Cortes,"et pourtant elle tourne", article de presentation,pp3-10,in:vivre le français, revuelittéraire ,Europe, n°738,octobre 1990.

[2]- voir, Darmesteter, R. 1950 : La vie des mots, étudiée dans leurs signification, De la grave, Paris, 212p

النّوع من المواقف يحرم اللّسان تماما من التّبادل الثّقافي مع الألسنة الأجنبية. إن كل ميل يكون هدفه المحافظة الخالصة والبسيطة فعلا للسّان على حساب كل تواصل مع بقية الألسنة الّذي يبقى محاولة من

بين المحاولات للمساهمة سلبا أو إيجابا في تعميق قدم اللّسان. يقول (دامستيتر) "Darmesteter": "إن الأسباب الأساسية الّتي تبقي اللّسان نقيّا متضمّنة في كلمة هي ثقافة الفكر". "ولكي تكون هناك ثقافة حقّا، يجب أن يكون اللّسان قابلا لعدد من الميكانيزمات الدّيناميكية الّتي تسهّل إثراءه وتحيينه الدّائم. وتبقى وجهات نظر المذهب الآخر، التي تمثل "القوّة الثّورية".

نعتقد أنّه بفضل التّبادل الثّقافي والتّطوّر اللّساني، وتشجيع الإبداع وإعطاء الأولوية للانفتاح على الألسنة الأجنبية، نكون ضمن الاتجاه الثّوري الّذي يحتاجه كل لسان لكي يكون براغماتيا وتنافسيا موافقا لمجريات الحين، ولعل ذلك قد يدفع إلى استخدام ميكانيزمات خارجية ليثير إعادة نظر في هوية اللّسان الخاصّة أو يحدث خللا جزئيا فيها، وعلى كل حال فإنّ كلا الاتجاهين يتضمّنان الإيجاب والسّلب.

يسود اللّسان باعتباره أداة للتّواصل كل علاقة تفاعلية لجماعة ما. وباعتباره نتاج مجتمع فهو يضم مجموع العلامات اللّفظية كلّها التي تمثل مختلف التّبادلات الكلامية بين عناصره. وهو كذلك يولد ويتطوّر. وفي هذا السّياق يفرض اللّسان العربي على محلّليه ليس فقط نظرة متميّزا، بل إشكالية من نوع آخر (من قبيل المقدّس) الّذي يقوّي قيمته أو دوره المرجعي، فعندما يضحى اللّسان العربي موضوعا للدّراسة تضحى التّساؤلات المتعلّقة بتطوّره ونشوئه شائكة وخطيرة لكونها مشبعة بالروحية الدّينية.

تعتبر النّقاشات الّتي خاضت في أصل اللّسان العربي ومكانته من بين أهم النقاشات التي حرّكت العلم العربي والإسلامي في القرن السّابع الميلادي، فهو في عيون بعضهم وحي وتوقيف، وفي نظر آخرين تواضع واصطلاح، ولا يزال النّقاش مستمرّا حتّى اليوم والتّعرّض لها بالنّقاش مسألة حسّاسة جدّا. يفضّل بعض اللّسانيين العرب عدم المغامرة في تعريف محفوف بالمخاطر على الرّغم من أهميته لحفظ اللّسان العربي بدقّة، وأيّدوا على الفور أن الأمر يتعلّق بلسان "منزّل" صادر عن السّماء، وذلك ما ثبت بعد ذلك في القرآن [1].

أمّا بالنّسبة للسانيي ذلك العصر الذّين خرجوا عن هذه النّظرة، ولم ينضووا تحت النّوع من التّأييد، إذا كان موقفهم الرّافض يبدو قوي التّأسيس، فإنّه لم يكن له من الأدوات والإمكانات الكافية لإقامة موقفهم النّظري. إنّ غياب علم لغويّ حقيقي جعل مقاربة أنظمة التّواصل القديمة هذه صعبة للغاية. فنادرا ما نجد دراسات ضاربة في أعماق التّاريخ البعيد لبعض الألسنة نظرا لغياب الإمكانات المناسبة إذ نكتفي في الغالب الأعم بدراسة تصانيفها والوقوف عند ميكانيزماتها، وبشكل مختصر تقديم وصف لها.وما دام اللّسان العربي لسانا "منزّلا"، فهو بالنّسبة لأولئك الّذين يتمسّكون بهذا المذهب لا يمكنه أن ينسج علاقات مع غيره من الألسنة إلاّ في حدود ضيّقة، ولذلك فالتّبادل المصطلحي وتعلّم الألسنة الأجنبية غير مرغوب فيه كثيرا، فالحفاظ عليه أولويّة على الرّغم من كلّ الامتيازات المتّفق عليها بين الدّول في السياسات اللّغوية.

---

[1] ينظر: أبو الحسين أحمد بن فارس: ألصاحبي في فقه العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 1997.

إنّ وجهة النّظر النّافية لأي خاصيّة خارقة أو معجزة للّسان العربي، والقائلة إنّه لا يختلف عن أغلب أنظمة التّواصل الأخرى تحتاج أيضا إلى فحص. بالنّسبة لهؤلاء، يبقى اللّسان مجرّد تعبير تواصلي متّفق عليه ضمن مؤسّسة، ويعتقدون - مقارنة بالاختلافات المفاهيمية والصّوتية- أنّ اللّسان العربي قد خاض مسلكا خاصّا أسّس واقعه وسمح له بوضع علاقات متعدّدة بألسنة أخرى وبثقافات أخرى. إنّ النّظرة اللّسانية لهؤلاء من هذا المنطلق أكثر استقراءا، لا تسعى بأي حال إلى طرح إشكالية من القبيل الإيتيمولوجي الّذي يحتاج إلى طرح أكثر عمقا.

لقد اشتهرت مدرستان في التّراث العربي اقتسمتا الاتجاهين المذكورين هما:

أ- مدرسة الكوفة: تزعّمها ابن فارس والّذي يقول إنّ اللّسان العربي لم يكن يوما موضع ترميز، بل هو من عند اللّه.

ب- مدرسة البصرة: ويمثّلها ابن جني الّذي اعتبر اللّسان العربي نظاما للتّواصل من بين أنظمة أخرى والّذي لا يمكن سبر غور مصدره [1].

وقد كانت مدرسة الكوفة أكثر تأثيرا، أين عرّف ابن جني في كتابه "الخصائص" اللّسان باعتباره أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم. ولكنّه كان أكثر موضوعية ومعقولية في ذلك، من سلوكاته

[1]- ينظر: أبو الفتح عثمان بن جني: الخصائص، تحقيق محمد علي النّجّار، دار الكتب المصرية، المكتبة العلمية، 1952م.

وكذلك: حسن ظاظا: اللّسان والإنسان: مدخل إلى معرفة اللّغة، دار القلم- دمشق، الدّار الشّامية، الطبعة الثّانية 1990، ص ص. 39- 66..

وتدخّلاته الفعلية إذ كان يؤمن بشكل كبير بتصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني [1].

ولقد قبل لسانيو العصور الوسطى تلك النّظرة إضافة إلى الطبيعة التّطوّرية للألسنة، إذ لا يمكن تصوّر لسان مستقل عن الظّواهر الخارجية أو تلك الّتي تمثّل وسطه ومحيطه.

5- اللّسان العربي ولهجاته (ويسمّيها العرب لغات): لقد أراد لسانيو العصور الوسطى إخراج اللّسان العربي عن العادة بفعل الضّغط الّذي مارسته المدرسة البصرية عليهم، ولقد تطلّب ذلك الكثير من العناء المترتّب عن كثرة النّقاش للوصول إلى سرّ ذلك التّقليد الّذي سعت الكوفة ومن تبنّى فكرها إلى الإبقاء عليه، فحاول هؤلاء (نقصد لسانيو العصور الوسطى) من خلال هذه النّظرة تفسير خصائصه، فصرفوه بداية إلى كونه من السّامية الّتي انقسمت إلى لهجات عديدة، وبعد ذلك لا حظوا من الوجهة التّاريخية أن هذه اللّهجات إنّما مورست في منطقتين منفصلتين هما شمال الجزيرة العربية وجنوبها. فكان أن انقسمت العربية الجنوبية إلى أربع لهجات هي: السبئيّة والحميرية والحبشية والمضرية.

أما العربية الشّمالية فليس لها إلاّ لهجتين هما:الحجازية والتّميمية.ومن هاتين اللّهجتين اشتقّ اللّسان العربي المعروف الآن بالفصيح. وما يمكن ملاحظته أن المهتمّين بالدّراسات اللّسانية في العصور الوسطى لم يفرّقوا بين اللّسان واللّهجة، ولهذا السّبب ألقوا على اللّهجات اسم اللّغات،

[1]- ينظر: أبو الفتح عثمان بن جني: م.س.

فنطقت قريش بإحداها واتخذت تميم الأخرى لها لسانا. والواقع أنه لا القرشية ولا التّميمية كانت قد تمتّعت في تلك العصور بمكانة اللّسان قبل العصر الجاهلي ففيه وجدت الأسواق كسوق عكاظ ودومة الجندل والتقى الشّعراء كزهير والحارث بن حلزّة وامرئ القيس والأعشى والمهلهل بن ربيعة وغيرهم فأسهموا في تطوير اللّسان العربي ومنحوه مكانة اللّسان في شبه الجزيرة قبل مجيء الإسلام.

ويبدو أنّ صدى كون اللّسان العربي وحيا كان من القوّة بحيث أضحى يزخر بشهرة تجاوزت الآفاق في وقت مبكّر واستطاعت أن تغيّر نظرة النّاس إليه، فتجاوز الحدود المعهودة للجزيرة العربية إلى العالمية، وهو الأمر الّذي لم يكن في الحسبان من قبل.

بعد مجيء الإسلام، أضحى اللّسان العربي أكثر أهمية لكونه أداة التّواصل الّتي سادت كل البقاع المفتوحة، فهو رمز العصمة من الخطأ النّاقل للحقيقة الحتمية المطلقة. وبذلك "دخل اللّسان العربي التّاريخ من الوجهة اللّسانية في نهاية القرن السّادس الميلادي مع شعراء العصر الجاهلي، ثم مع القرآن الّذي حدّد مصيره. فكان أن صار اللّسان المشترك بين القبائل، فوصفه المستشرقون بالمصطلح الإغريقي (Koinè) [1]، ولا ندري لماذا اختير هذا المصطلح بالضّبط... ولمّا كانت هذه "الكوانية" اللّسان الحي المهيب، فلا بد أن يكون لسان القرآن". ذلك هو المسلك الذّي خاضه اللّسان العربي في مساره الطّويل.

وليس من نافل القول الإشارة إلى أنّ اللّسان العربي ما كان له أن ينتشر بهذه السّرعة الكبيرة جدّا لولا مجيء الإسلام، فهو الذي اختاره. ولم

[1]1-voir, jean Dubois, Grand Dictionnaire de linguistique et sciences du langage, P.262

يشر لسانيو العصور الوسطى لا من قريب ولا من بعيد إلى ذلك. ولنا الآن أن نوضّح الأسباب الرئيسية الّتي أسهمت في انتشار اللّسان العربي:

- أوّلا، هناك أسباب إيديولوجية: فالتّحوّل عن دين إلى الدّين الإسلامي وتبنّيه، يتطلّب تعلّم لسانه، لأن جهله يعيق الفهم اللاّئق لواجبات الدّين ونواهيه.

- ثانيا، هناك أسباب لسانية: إذ القرآن في عيون العرب تحدّ ليس على مستوى المضمون فحسب، بل كذلك على مستوى الشّكل، لا يمكن مجاراته ولو حرص النّاس على ذلك.

- ثالثا، هناك أسباب سياسية: فرض اللّسان العربي على أقوام ليست عربية بحكم الفتح مثل بلدان شمال إفريقيا.

- رابعا، هناك أسباب اقتصادية: وتتلخّص في التّبادل التّجاري بين الأمم كما حدث بين التّجار العرب وسكّان اندونيسيا وماليزيا، حيث كان ذلك في صالح اللّسان العربي.

غير أنّ ذلك التّأثير لم يمارس من جانب واحد فقط، بل كان متبادلا، فلا يمكننا أن نتجاهل الثّراء الّذي لحق باللّسان العربي نتيجة احتكاكه بألسنة البلدان المفتوحة وأهلها مثل الأثر الفارسي مثلا، ويبدو ذلك جليا من خلال التّنوّع الثّقافي الّذي تمتّعت به الحضارة العربية والإسلامية، فبانفتاح اللّسان العربي على مختلف حقول المعرفة مثل السياسة والاقتصاد والحضارات الأجنبية استطاع التّطوّر سريعا.

هـــــوامش

1-jean Dubois, Grand Dictionnaire de linguistique et sciences du langage, Paris Larousse, 2007.

2- Ibrahim Albalawi, évolution de la langue arabe: étude sociolinguistique; Synergie Monde arabe, N°4 - 2007, pp.123-139.3-Anghelescu, N.1995. Langage et culture dans la civilisation arabe, L'Harmattan, Paris, 205p. 138 Synergies Monde arabe n° 4 - 2007 pp. 123-139 .

4- Henri mitterand et Autres, le dictionnaire étymologique et historique du français, Larousse, 2011.

5- رمضان عبد التوّاب: التّطوّر اللّغوي، الخانجي- القاهرة، الطبعة 2، 1990

6- Martinet, A.1991. Eléments des linguistique générale, A. Colin, Paris, 221p.

7- - Darmesteter, R. 1950 : La vie des mots, étudiée dans leurs signification, De la grave, Paris, 212p.

8- أبو الحسين أحمد بن فارس: ألصاحبي في فقه العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت - لبنان، 1997.

9- حسن ظاظا: اللّسان والإنسان: مدخل إلى معرفة اللّغة، دار القلم- دمشق، الدّار الشّامية، الطبعة الثّانية 1990.